علاقة الابستمولوجيا بـ: الفلسفة الوضعية، بنظرية المعرفة، بفلسفة العلوم، وبعلم المناهج

تمهيد:

يتداخل موضوع الابستمولوجيا بوصفه فرعا من الفروع المهتمة بقضايا العلم مع العديد من العلوم المعرفية الاخرى على غرار الفلسفة الوضعية، نظرية المعرفة، فلسفة العلوم، وعلم المناهج، لذلك سنحاول من خلال طرق هذه العلاقة التعرف على مناطق الالتقاء والاختلاف بين الابستيمولوجيا وهذه الفروع المعرفية.

1-علاقة الابستمولوجيا بالفلسفة الوضعية:

ربما يتساءل المتتبع لماذا البحث في علاقة الابستمولوجيا بالفلسفة الوضعية تحديدا، ويمكن الإجابة على هذا التساؤل برده إلى سببين رئيسيين هما:

- **السبب الأول**: ويعود إلى أن كتاب "أوغست كونت" الذي صدر سنة 1876 تحت عنوان:" محاضرات في الفلسفة الوضعية" كان أحد المؤلفات الأساسية التي نشرت بمبحث حول الابستمولوجيا مثلما نعرفها في أيامنا هاته.

***السبب الثاني**: هو أن عبارة " لالاند"" التي قال فيها في تعريف للأبستمولوجيا بأنها – الابستيمولوجيا- ليست استباقا حدسيا للقوانين العلمية على طريقة "الفلسفة الوضعية" برأي البعض لم تكن موفقة، وقد جانبه الصواب في هذا التعريف، أو في تحديد العلاقة بين الفلسفة الوضعية والابستمولوجيا من جهة وفي فهم حقيقة الفلسفة الوضعية في علاقتها بالعلم من جهة أخرى.

ولشرح وتوضيح هذا الموقف، نبدأ بتوضيح أو تحديد طبيعة العلاقة بين الفلسفة الوضعية والعلم عند "اوغست كونت" مؤسس المذهب الوضعي في القرن التاسع عشر (ق.19). فالعلم عند "أوغست كونت" هو تلك المعرفة التي بلغت آخر مراحل تطورها، ألا وهي المرحلة الوضعية، أي بعد أن تجاوز العقل البشري المرحلة اللاهوتية، والمرحلة الميتافيزيقية، داخل هذا الميدان، أو ذلك، من ميادين المعرفة. فالعقل الإنساني يكف في المرحلة الوضعية، عن إعطاء تفسيرات لاهوتية، أو ميتافيزيقية، لشتى الظواهر. ذلك أن المرحلة الوضعية، هي المرحلة التي يشرع فيها العقل الإنساني، في تفسير الظواهر بإرجاعها إلى عللها من أجل التوصل إلى اكتشاف القوانين العلمية الواقعية التي تحكمها.

ففي المرجلة الوضعية يصبح كل علم من العلوم مستقلا بذاته، إذا استطاع أن يحقق تراكما كميا معرفيا، وتمكن من تطبيق المنهج الوضعي في دراسته للظواهر المختلفة. وبعبارة أخرى وحسب "أوغست كونت" فإن المعرفة التي لا تبنى على الفلسفة الوضعية لا يمكن اعتبارها معرفة علمية على الإطلاق.

أما إذا ما انتقلنا إلى تحديد العلاقة بين الفلسفة الوضعية والابستمولوجيا، فإنه يمكن القول بأن هذه العلاقة قد جاءت نتيجة محاولة "أوغست كونت " تلافي النتائج السلبية التي انبثقت عن دعوته الفلسفية في ميدان العلوم. فالذي يتتبع النتائج المترتبة عن تأثير الروح الوضعية، على مختلف العلوم في القرن التاسع عشر (ق.19) يمكنه تصنيفها إلى نوعين من النتائج: نتائج إيجابية من جهة ونتائج سلبية من جهة ثانية.

- **تتلخص النتائج الإيجابية:** في كون أن التقسيم المنظم والمتخصص للمعارف قد سمح بتطوير ونمو المعارف في عدد من الميادين المختلفة.

- **وأما النتائج السلبية:** فتظهر في حالة التخصص الضيق التي جاء بها العصر الوضعي حيث أن الانغلاق شبه الكلي الذي عاشه أصحاب التخصصات العلمية المختلفة داخل تخصصاتهم جعلهم مقطوعي الصلة بما يجري داخل التخصصات العلمية الأخرى. لا بل وما كاد القرن التاسع عشر ينتهي حتى أصبحت هذه النتائج السلبية، هي السمة العامة للمعارف العلمية في بداية القرن العشرين (ق.20)، حيث لا حظ العلماء في مختلف فروع العلم، أن تخصصاتهم قد توقفت عن التطور أو تكاد. وقد عبر هذا الموقف عن نفسه فيما عرف آنذاك بأزمة "الأسس في العلوم". وقد وجد العلماء بأن تجاوز هذه الأزمة يكون بالبحث في الأسس التي يقوم عليها العلم موضوع تخصصاتهم، وهو البحث الذي يؤدي بدون أدنى شك إلى إقامة صلات من نوع جديد بين مختلف فروع المعرفة الإنسانية. وكان من نتائج ذلك ان رد العلماء بعض العلوم إلى بعضها البعض، ومن أمثلة ذلك أن انتهت جهود "ديد كند"، فريجة"، بيانو "رسل" وغيرهم من رد الرياضيات إلى المنطلق، أي أن أسس أو أصول الرياضيات إنما توجد ممزوجة ومتداخلة مع أسس وأصول المنطق نفسه.

والواقع أن "اوغست كونت" كان قد انتبه إلى مثل هاته النتائج السلبية للدعوة الوضعية في ميدان العلوم ولذلك رأى بأن على الفلسفة الوضعية الحفاظ على النتائج الإيجابية للعصر الوضعي،

وتفادي الوقوع في الخطر الذي يهدد تقدم المعرفة الإنسانية نتيجة استمرارا تقسيم وتجزئة هذه المعرفة. وأما الحل برأيه فيكمن في خلق اختصاص علمي جديد ينضاف إلى الاختصاصات الأخرى في نسق المعرفة الوضعية غير ان موضوع هذا الاختصاص الجديد ليس موضوعا معرفيا جديدا. فهو كاختصاص إنما يهتم بالعلاقات بين الميادين المعرفية الأخرى. وأما الفلاسفة الذين سيقومون بهذه المهمة، أو بهذا الاختصاص الجديد، فهم فئة جديدة من العلماء تتمتع بتكوين خاص بهيئتها، وهي توجه اهتمامها إلى ربط كل اكتشاف جديد بمجموع المعارف الوضعية، حتى لا يؤدي الاهتمام بالتفصيلات إلى عدم إدراك المجموع.

ومنه فإن الفلسفة الوضعية مثلما ذهب إليه " كونت" هي من ستتولى مثل بهذه المهمة، أي مهمة هذا التخصص الجديد. وهنا تحديدا تظهر علاقة الفلسفة الوضعية بالعلم، وبالتالي يتبين بأنها ليست مقطوعة الصلة بالإبستمولوجيا، بما أنه من مهامها ما يكاد يكون نفسه تلك المهام التي يحددها المفكرون اليوم، لما يسمى بالإبستمولوجيا، فالفيلسوف الوضعي مثلما يراه "كونت" هو نفسه الابستمولوجي. وبالتالي تصبح الفلسفة الوضعية وفق ذلك بمثابة شرح او توضيح إبستمولوجي.

2-علاقة الابستمولوجيا بنظرية المعرفة:

يعرف بعضهم المعرفة على أنها: " ذلك الفعل الذي تستطيع بواسطته الذات أن تسيطر عقليا على موضوع معين بغية اكتشاف الخصائص المميزة له" علما بأن الفلاسفة والعلماء يختلفون فيما بينهم في تصورهم لفعل المعرفة.

فإذا كان العلماء يرون بأن الأصل في المعرفة هو البناء العقلي للموضوع الذي يزداد دقة وتحديدا بفضل التطور الحاصل في مناهج ومفاهيم العلم عبر تاريخ تطور العلم ذاته، فإن الفلاسفة ينصرفون إلى الاهتمام بالمعرفة من حيث إمكان قيامها أصلا، طبيعتها، حدودها، وسائلها...إلخ، هذا في الوقت الذي يصر فيه معظم العلماء المعاصرون على ضرورة التمييز بين الابستمولوجيا ونظرية المعرفة، انطلاقا من أن الابستمولوجيا تشغل بنظرية المعرفة العلمية، في حين تهتم نظرية المعرفة بكل أنواع المعرفة.

فما هي حقيقة العلاقة بين الابستمولوجيا ونظرية المعرفة يا ترى؟

يمكن القول بأن الإجابة على هذا السؤال تذهب في ثلاث (03) اتجاهات متباينة عن بعضها البعض وهي:

أ- الاتجاه الأول: وهو الاتجاه الذي يمثله الفلاسفة الناطقون بالغة الإنجليزية، الذين لا يميزون بين الابستمولوجيا ونظرية المعرفة. فهم يستخدمون اللفظين بالمعنى ذاته، أي لم يفرقوا بين ميدان الابستمولوجيا وميدان نظرية المعرفة." فالأبستمولوجيا أو نظرية المعرفة وفقهم هي ذلك الفرع من فروع الفلسفة الذي ينصرف إلى دراسة طبيعة المعرفة وحدودها، ويهتم بتحديد الأسس والفروض التي تستند إليها ويهدف إلى إبراز القيمة التي تمكننا أن نصيفها عليها".

ب- الاتجاه الثاني: ويمثله أولئك المفكرون وبالأحرى الفلاسفة الذين يرون بتعدد صور وأشكال المعرفة، أي أنه وإلى جانب المعرفة العلمية توجد معارف أخرى. وقد يكون مصدرها القلب مثلما هو الشأن عند (بسكال) أو الحدس عند (برجسون وهوسرل) أو الذوق بالنسبة لـ (عامة المتصوفة). ولذلك فإن المعرفة العلمية بالنسبة لهم ليست سوى نوع من جنس أعم هو المعرفة على العموم.

ج- الاتجاه الثالث: وهو الاتجاه الذي يرفض أصحابه القول بوجود أية علاقة بين الابستمولوجيا ونظرية المعرفة، مثلما يعتقد بعض الفلاسفة، ويمثل هذا الاتجاه الوضيعون المناطقة الذين تحول عندهم جنس المعرفة كله إلى نوع واحد فقط هو المعرفة العلمية، وإلى مثل هذا المعنى ذهبت دائرة المعارف الفرنسية عندما رفضت أن تكون هناك علاقة بين الابستمولوجيا وبين الفلسفة عموما.

نفهم مما تقدم أن مصطلح الابستمولوجيا ومصطلح نظرية المعرفة يحملان ذات الدلالة في الموسوعات الإنجليزية في حين يتم التميز بين هذين المصطلحين في القواميس والموسوعات الفرنسية التي تميز بين ما يطلق عليه نظرية المعرفة وما يطلق عليه الابستمولوجيا. وهي بمثل هذا الموقف تفصل تماما بين موضوع نظرية المعرفة التي تهتم بدراسة جميع أنواع المعارف دون تخصيص، وموضوع الابستمولوجيا التي تهتم بنوع خاص من المعرفة ألا وهي المعرفة العلمية. ومن أصحاب هذا الاتجاه نجد " كرناب" الذي لا يعترف بأية نظرية في المعرفة لا تكون تحليلا للعلم.

إن القائلين بالرأي الأول أو الذين يرفضون التمييز بين نظرية المعرفة والأبستمولوجيا مثلما ذهب إليه "جان بياجيه" إنما يعتقدون بأن موضوع أية نظرية في المعرفة، هي تحليل للمعرفة العلمية في مرحلة ما من مراحل التطور العلمي عبر التاريخ، بمعنى أن كل نظرية في المعرفة، إنما هي بالضرورة نظرية في المعرفة العلمية. وبمعنى آخر فأن أية نظرية فلسفية، أو ميتافيزيقية في المعرفة هي أيضا

نظرية في المعرفة العلمية، بما ان الفلسفة أو الميتافيزيقيا هي الام التي أنجبت تاريخا مختلف العلوم. نجد عالم النفس "جان بياجيه" الذي يرى بأن العلم سواء نظر إليه من خلال دوره في تقدم المجتمعات أو في بناء الفرد، فإنه يكتمل بشكل مضطرد وبدون أن يصل إلى الكمال، ولهذا فإن نظرية الابستمولوجيا الارتقائية لابد تتحول في نهاية المطاف إلى نظرية في المعرفة. ويذهب عالم النفس "جان بياجيه" بذات الرأي وهو الذي يرى بأن العلم سواء نظر إليه من خلال دوره في تقدم المجتمعات أو في بناء الفرد، فإنه يكتمل بشكل مضطرد وبدون أن يصل إلى الكمال، ولهذا فإن نظرية الابستمولوجيا الارتقائية لابد تتحول في نهاية المطاف إلى نظرية في المعرفة.

وأما القائلون بالرأي الثالث، أو الذين يرفضون المطابقة ما بين نظرية المعرفة والابستمولوجيا، فيرون بعدم إمكانية أن يكون العلم وبالتالي المعرفة العلمية ابن الميتافيزيقيا، أو أن المعرفة العلمية ليست استمرا للمعرفة الكلاسيكية، ولا حتى جزء منها، لأنها تختص بالبحث في الجانب العلمي من المعرفة لا غير.

3- علاقة الابستمولوجيا بفلسفة العلوم:

تختلف آراء المفكرين حول علاقة بين الأبستمولوجيا وفلسفة العلوم وفي هذا يمكننا التمييز بين موقفين أساسيين هما:

- **الموقف الأول**: ويرى أصحابه بأن الابستمولوجيا ما هي إلا فصل من فصول فلسفة العلوم، أو هي طريقة خاصة من طرق الفلسفة في العلم.

- **الموقف الثاني**: وهو الموقف الذي يعتقد مؤيدوه بعدم وجود أية علاقة تربط بين الابستمولوجيا وفلسفة العلوم.

هذا ولنشرح الموقف أو الرأي الأول القائل بأن الابستمولوجيا ما هي إلا فصلا من فصول فلسفة العلوم أمكننا العودة إلى تعريف "أندريه لالاند" للأبستمولوجيا الذي يقول فيه بأنها الدراسة النقدية لمبادئ العلوم ونتائجها، بغرض تحديد أسسها المنطقية، فكأنما "لالاند" ووفقا لهذا الفهم للأبستمولوجيا يرى بأنها التحليل المنطقي لقضايا العلم، وبالتالي فهي جزء من فلسفة العلوم، وهو ذات الرأي الذي قال به كل من "فايجل" و" بروديك" اللذان ميزا بين أربعة (04) طرق مختلفة للفلسفة في العلم ألا وهي:

أ- دراسة العلم في علاقته مع العالم (بكسر اللام) ومع المجتمع.

ب- وضع العلم في مكانه مع مجموعة القيم الإنسانية.

ج- الدراسة التأملية التي تستمد من نتائج العلم.

د- التحليل المنطقي للغة العلم.

هذا مع العلم بأن "فايجل" و"برودبك" يتمسكان بالطريقة الأخيرة أي بالتحليل المنطقي للغة العلم، لأنها الطريقة الوحيدة في اعتقادهما التي تتلاءم مع ما يعنيه لفظ "ابستمولوجيا".

وأما الموقف الثاني: والذي يرى أصحابه بعدم وجود أية علاقة بين الابستمولوجيا وفلسفة العلوم، فمن باب حرصهم على ألا تختلط الابستمولوجيا بالمشكلات الفلسفية. ولأنه أيضا لو صح القول بوجود علاقة بين الابستمولوجيا والفلسفة لجاز القول بأن كل الفلاسفة هم باحثون في الابستمولوجيا، لأن لكل فلسفة مفهومها الخاص عن العلم، ابتداء من فلسفة أفلاطون وإلى غاية فلسفة الوضعيين المناطقة ويستشهد أصحاب هذا الرأي بالفلسفة الوضعية "لأوغست كونت" التي جعلت للعلم مكانة خاصة ومميزة في نسق المعارف المختلفة، في صورتها الوضعية الخالية من كل الأبعاد الأنطولوجية.

وعليه يخلص هؤلاء المفكرون إلى القول بأنه لو صح القول بوجود علاقة بين الفلسفة والابستمولوجيا لكان من حق الفلسفة الوضعية أن تزعم بأنها "فلسفة العلم" بدون منازع. وضمن هذا الطرح يذهب "جان بياجيه" إلى القول بأن الابستمولوجيا تهتم- مثلها في ذلك مثل المنطق- بتحليل المعارف ذات الطابع العلمي، أو تلك المعارف التي تحتوي بحكم طبيعتها على مشكلات منطقية ونفسية ومنهجية لا علاقة لها اليوم بالفلسفة العامة. كما يؤكد على أن الابستمولوجيا ستقطع في المستقبل صلتها كلية مع التفكير التأملي الفردي.

ويذهب "بلانشيه" في ذات الاتجاه إذ يرى بأن ما يميز الابستمولوجيا المعاصرة هو انتقالها التدريجي بمشكلاتها من أيدي الفلاسفة إلى أيدي العلماء المتخصصين، ويعود السبب في ذلك إلى الأزمات الأخيرة التي هزت العلوم من جذورها، مما أدى بالعلماء أنفسهم إلى إعادة النظر في مبادئ علومهم ووضع الأسس التي تقوم عليها موضع التساؤل.

إلا أن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل معنى هذا أنه لا توجد أية علاقة بين الابستمولوجيا بوصفها تحليلا نقديا للمعرفة العلمية والفلسفة بوجه عام؟

إن الإجابة على هذا السؤال تستدعي الوقوف عند مسألتين:

المسألة الأولى: أن مشكلات الابستمولوجيا تنقسم إلى نوعين:

أ- مشكلات عامة: مثل تصنيف العلوم وتقسيمها في مجموعات معينة.

ب- مشكلات خاصة: بكل علم على حدة، لذلك وإذا ما كان العلماء المتخصصون أدرى الناس بالمشكلات علومهم، فإن مشكلات الابستمولوجيا تتطلب من الباحث فيها معرفة عامة، وخلفية نظرية وتاريخية قد لا تتوفر إلا في الفيلسوف.

المسألة الثانية: أن مشكلات الابستمولوجيا الخاصة بكل علم على حدة تتطلب بدورها خلفية فلسفية لدى العلماء أنفسهم.

وعليه ووفق ما ذهب إليه "بلانشيه" فإنه وإذا ما فرقنا بين الابستمولوجيا وفلسفة العلوم، فإن الأمر يستدعي التأكيد على أن الفارق بينهما هو في الاتساع. بمعنى أن الابستمولوجيا هي ذلك الجزء من فلسفة العلوم الأكثر قربا من العلم، وهي – الابستيمولوجيا- بروحها ومناهجها تمتد على مساحة متوسطة بين العلم والفلسفة، وتنتهي حدودها في ميدان العلم والفلسفة على السواء.

4-علاقة الابستمولوجيا بعلم مناهج البحث -الميثودولوجيا-

المنهج:

يعرف "ديكارات" المنهج بقوله:" أعني بالمنهج جملة القواعد السهلة التطبيق إذ ما راعاها الشخص بدقته تجعله لا يتخذ شيئا خاطئا على أنه صحيح، ولا يتضح أي جهد عقلي، بل تجعله ينمي معرفته خطوة خطوة حتى يصل إلى فهم صحيح للأشياء" والمنهج هو الطريق الواضح في التعبير عن الشيء أو عن همل شيء، أو في تعلم شيء طبقا لمبادئ معينة وبنظام معين، بغية الوصول إلى غاية معينة.

علم المناهج:

هو دراسة النظريات التي تستعمل في العلوم ونظريات المعرفة، وفي القرن الثامن عشر (ق. 18) أخذ كانط من خلال كتابه "نقد العقل الخاص" يميز بين المنطق العام والمنطق العلمي الذي كان يقصد به علم المناهج من حيث أنه يبحث في المناهج الممكنة التي تنظم العلوم العلمية وهنا كشف عن اتجاه جديد بدأ يظهر وينمو داخل الفلسفة ذاتها، وهو علم المناهج.

وتعد هذه الدعوة التي قام بها الفيلسوف "كانط" داع إلى استخدام مصطلح علم المناهج وتطور. "إن علم المناهج يهتم بتحديد الشكل العام لكل علم وبتحديد الطريقة التي يتشكل بها أي علم من العلوم".

فعلم المناهج هو الذي يبحث في مناهج البحث العلمي والطرق العلمية التي يكتشفها ويستخدمها العلماء والباحثون من أجل الوصول للحقيقة. علم المناهج هو الدراسة الفكرية لمختلف المناهج التي تطبقها العلوم.

هل الابستمولوجيا هي علم المناهج؟ أم أنهما ميدانين مختلفين عن بعضهما وإن كانا متجاورين؟

تعيدنا الإجابة على هذا السؤال مرة أخرى إلى تعريف "لالاند" لمصطلح "الابستمولوجيا" وتحديدا عندما ميز بين الاثنين، أي بين الابستمولوجيا من جهة وعلم المناهج من جهة أخرى، عندما قال بأن الابستمولوجيا:" ليست هي الدراسة الخالصة للمناهج العلمية، فهذا موضوع البحث الذي هو جزء من المنطق "ذلك أن موضوع الابستمولوجيا هو:" الدراسة النقدية لمبادئ العلوم المختلفة وفروضها ونتائجها".

الواضح من التعريف الذي قدمه "لالاند" للأبستمولوجيا أنه جعل من علم مناهج البحث جزءا من المنطق، وبالتالي فإن دراسة علم مناهج البحث إنما تنبع من دراسة المنطق، أي أن علم مناهج البحث ما هو إلا أحد الأقسام الداخلية للمنطق، وإن كان مثل هذا الفهم للمنطق، وعلم مناهج البحث يعد بتطابق مع ما نعرفه اليوم عن المنطق.

وفي فرنسا مثلا كان لفظ "منطق" في حوالي 1900 يستخدم في التعليم الجامعي بمعنى واسع للغاية فقد قسم المنطق حينذاك إلى قسمين هما: أ- **المنطق العام**: الذي يقوم بتحديد الأشياء التي هي موضوعات المعرفة، وأهم جزء فيه هو المنطق الصوري. ب- **المنطق الخاص أو التطبيقي**: الذي يدرس المناهج الخاصة بكل علم من اللوم المختلفة، أي بمعنى أن علم مناهج البحث كان متضمنا في المنطق، بوصفه أحد قسميه.

ويتساءل "بلانشيه" بهذا الخصوص قائلا: ولكن إذا ما استبعدنا فكرة اشتمال "المنطق" على علم مناهج البحث، هل يجوز أن نلحقه بالإبستمولوجيا؟ **ويجيب** بالقول: " إنه لمن الصعب أن يدرس الباحث مبادئ العلوم المختلفة دراسة نقدية متوخيا تحديد أهميتها، وقيمتها الموضوعية مثلما يقول

"لالاند" من دون أن يضع في نفس الوقت، موضع التساؤل طبيعة وقيمة الوسائل التي تشيد بواسطتها هذه العلوم والتي تصل بنا إلى قيمة موضوعية".

ثم يضيف على ذلك لقد كان "**بياجيه**" على حق عندما أكد على أن المناسبات التي يظهر فيها دائما التفكير الابستمولوجي هي الأزمات التي تمر بها هذا العلم أو ذلك. وحيث العلة في هذه الأزمات هي الثغرات، المتعلقة بمناهج البحث، التي توظفها العلوم، وحيث يكون تجاوز مثل هذه الأزمات، باختراع مناهج بحث جديدة. بمعنى أنه ولهذا السبب على وجه التحديد أدخل "**بياجيه**" دراسة المناهج العلمية وتحليلها في إطار الابستمولوجيا. أي أنه من الصعوبة الفصل بين ميدان الابستمولوجيا وميدان علم مناهج البحث، أو الميثودولوجيا، بل إن علم مناهج البحث يجد مكانه المناسب في إطار الابستمولوجيا.

وجملة القول هنا هي أن "بياجيه" يؤكد على التكامل القائم بين الابستمولوجيا وعلم مناهج البحث، ذلك أن الابستمولوجيا تهتم في دراستها النقدية بدراسة مناهج العلوم، لأن دراسة مناهج العلوم، مهمة في توضيح مراحل عملية الكشف العلمي. أو كأن علم المناهج يقدم لنا الدراسة الوصفية المستخدمة في تحصيل المعارف العلمية، لتتعدى الابستمولوجيا ذلك، إلى الدراسة النقدية لاستخلاص المبادئ التي ينطوي عليها التفكير العلمي.